

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم التاريخ

—جامعة تلمسان—

حركة التأليف بالسودان الغربي خلال القرنين الثامن و العاشر الهجريين.

مقدمة

لقد عرف السودان الغربي¹ ما بين القرنين الثامن والعاشر الهجريين مستوى رفيعاً جداً في ميدان العلم و الثقافة، بحيث عرفت الثقافة العربية الإسلامية كل المعارف التي توصل إليها العالم الإسلامي سواء عن طريق الفقهاء والعلماء الذين ارتحلوا إلى حواضر السودان الغربي ؛ تومبوكتو جني و غاو أو عن طريق الكتب التي كانت ترد على أسواقها بكميات كبيرة أو عن طريق الطلاب الذين عرفت عنهم حركة دائبة تجاه شمال إفريقيا والذين سيتحولون إلى دعاة وفقهاء وعلماء ومؤلفين.

أهم المؤلفات المتداولة :

كانت الكتب الدراسية المتداولة في جني و غاو و تومبوكتو هي نفس الكتب و التأليف المعروفة في البلاد الإسلامية الأخرى ومن بينها : تأليف التفسير من أهمها الجلالين⁽²⁾، موطأ مالك في الحديث و الفقه، **الصحيحين البخاري ومسلم**⁽³⁾ و **الشفاء للقاضي عياض في السيرة**، و مدونة سحنون في فقه الإمام مالك، و الرسالة الفقه المالكي، ومختصر خليل

و المنتقى للباجي شرح الموطأ ⁽⁴⁾ و مختصر ابن الحاجب الفرعي في الفقه المالكي و مختصر ابن الحاجب الأصلي في الأصول ⁽⁵⁾ و تهذيب البرادعي في الفقه المالكي، و جامع المعيار للونشريسي، و الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، الدرر اللوامع لابن بري التازي، دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي، مدخل ابن الحاج، و البيان و التحصيل لابن رشد، و المعيار المغرب عن فتاوى علماء أفريقية و الأندلس و المغرب للونشريسي، و الجامع الصغير في الحديث للسيوطي، و ألفية العراقي في علوم الحديث مع شرحها، و سيرة ابن هشام، الجزائرية للزواوي ⁽⁶⁾، و رجز المغيلي الكبرى في المنطق و شرحه لأحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، و تحفة الحكام و العباد ⁽⁷⁾ و عقائد السنوسي في التوحيد وهي ثلاثة: العقيدة الكبرى والوسطى و الصغرى، و الخزرجية في العروض بشرح الشريف، و العشرينيات في مدح الرسول - صلى الله عليه و سلم - و عرفت بالفازازية ⁽⁸⁾ و حكم ابن عطاء الله مع شروح زروق عليه، و الهاشمية في التنجيم مع شرحها، و مقدمة التاجوري و البسط و التعريف في علمك التصريف للمكودي ⁽⁹⁾ و لامية ابن المجراد السلوي في الجمل، و المرشد المعين لابن عاشر الفاسي، و لامية الزقاق، و المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق أيضا، و إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقرئ، و المقامات الحريري في الأدب العربي، و ألفية الأثر في الحديث، و شرح النقاية في الأصول، و البيان و التصوف، و شرح الكوكب الساطع في نجم جمع الجوامع وهو في الأصول و البيان و التصوف، و شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد و الشاطبية ⁽¹⁰⁾ التي انتشرت انتشارا سريعا في بلاد السودان، و لقد كان لسلطين السودان الغربي في عهدي دولة مالي و سنغاي دور في اقتناء هذه التأليف و الكتب فيقول العمري عن السلطان منسا موسى " و جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك رضي

الله عنه و استغل مروره بالقاهرة أثناء حجه، فاشترى مجموعة كبيرة من كتب فقه المالكية⁽¹¹⁾، كما أحضر هذا السلطان لمراكز التعليم بدولته نوادر الكتب من مصر و الحجاز ومن الأقطار التي مر بها ومن ثم أنفق جزءا من أموال مملكته على شراء الكتب⁽¹²⁾.

وأكثر من ذلك، يظهر أن حكام مالي كانوا يسهرون على بعث الطلبة السودانين للمراكز الثقافية ببلاد المغرب و المشرق الإسلاميين، و ذلك على نفقتهم الخاصة، وأخذت رحلة العلم السودانية تعرف نموا مطردا و متزايدا مع بداية القرن التاسع الهجري و كان ذلك خلال بروز العائلات العلمية السودانية خاصة عائليتي أقيت، و بغيغ و بما أن القاهرة كانت توجد في طريق الحجاج السودانين، فقد كان أهل مالي و سنغاي يستغلون فرصة مرورهم بها لحضور حلقات العلم بالجامع الأزهر، و الاتصال بفقهاء المالكية، و يذكر أن سلاطين السودان الغربي أنشئوا مدرسة خاصة بهم بمصر و تحملوا جميع نفقاتها يقول المقرئزي عن هذه المدرسة المالكية التي حملت اسم منشئها : " هي بخط حمام الريش من مدينة مصر (القاهرة) كان الكاتم من طوائف التكرور لما وصلوا إلى مصر سنة بضع و أربعين و ستمائة قاصدين الحج دفعوا للقاضي "علم الدين بن رشيق" مالا بناها به و درس بها فعرفت به و صار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة و كانوا يعيشون إليها في غالب السنين المال".⁽¹³⁾

2 - حركة التأليف بالسودان الغربي :

ظهرت طبقة من المثقفين المبدعين في تأليف مختلف الفنون الإسلامية، في الفقه و المدح و النحو و المنطق و التصرف و التاريخ، ففي الفقه برز كما ذكرنا برز العالم أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت، بن عمر بن علي بن

يحيى الذي علق علي موضع خليل و على شرحه للتتائي بين مواضع السهو
منه.

كما ألف في الفقه العلامة أحمد بابا التمبوكتي عدة تأليف منها :

- تنبيه الواقف
- درر الوشاح في فوائد النكاح
- ترتيب جامع المعيار للونشريسي
- تعليق على مواضيع ابن الحاجب
- الزند الوري في مسألة تخيير المشتري
- اللمع في الإشارة إلى حكم التبغ
- معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود
- أما في المدح، فألف علماء السودان الغربي قصائد في مدح النبي - صلى الله عليه وسلم- فمن بين تأليف أحمد بابا في هذا المضمار و هي :
- الدر النظير في ألفاظ الصلاة على البشير النذير.
- خمائل الزهر في كيفية الصلاة على البشير النذير
- أما في النحو فقد ألف أحمد بابا التمبوكتي مؤلفات عدة ومن بينهما :
- مسألة مساواة الفاعل للمبتدأ و شرح الألفية
- أما أبي عبد الله أحمد بابا بن الأمين المختار التمبوكتي فقد ألف :
- المنح الحميدة في شرح الفريدة، و هو شرح لألفية السيوطي في النحو.

أما في المنطق، فقد أبدع فيه عدد لا بأس به من السودانيين ومن بينهم : الفقيه محمد بن محمود بن عمر أقيت الذي شرح رجز المغيلي، و الفقيه أحمد بن أحمد أقيت الذي وضع شرحا سماه شرح منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب للمغيلي، كما وضع تعليقا على صغرى للسنوسي التلمساني.

أما في التصوف فقد ألف فيه بعض من علماء السودانيين ومن بينهم أحمد بابا الذي ألف مؤلفا أطلق عليه فتح الجيب و فتح الرزاق و كذلك لعمه أبي بكر بن أحمد أقيت التمبوكتي 932 هـ - 991 هـ) تأليف في التصوف سماه معين ضعفاء في القناعة و هذه رسالة في التصوف تلقي الضوء على هذا النوع من الإبداع تقول : " الشيخ الصالح الزاهد القطب أبي مدين شعيب الغوث، الولاية، نفعا الله بهم آمين و صلى الله على سيدنا محمد، عدد ما ذكره الذاكرون، و غفل عن ذكره الغافلون، إلى يوم الدين، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، بتاريخ أوائل صفر عام ثمانية و ثمانين و ألف (1088 هـ - 1677 م) على يد كاتبه العبد الحقير، الفقير بقله عمله، و رجاء عفو ربه، عبيد الله تعالى عبد الكريم بن الصالح بن أبي محمد بن أحمد السوقي، كتبه لخيار ابن إدريس، و كل من نظر فيه أن يدعو لنا و لجميع المسلمين الخاتمة بجاه محمد و آله أجمعين " (14).

أما في التراجم و التاريخ و الشعر فقد برز عدد من السودانيين أنتجوا عدة مؤلفات و يتصدرهم العلامة أحمد بابا التمبوكتي الذي أنكب على تأليف الكتب و إعداد تراجم و سير العلماء و الفقهاء، خاصة فقهاء المالكية ابتداء من الإمام مالك إلى عهده هو وزادت تأليفه على الخمسين كتابا من بينها :

- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، الذي ترجم فيه إلى ثمان مائة و اثنين عالم.

- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، و هو مختصر لنيل الابتهاج.

و كلاهما عبارة عن تكملة لكتاب الديباج الذي ألفه العالم ابن فرحون، وذكر أحمد بابا في مقدمة نيل الابتهاج، بأن وجوده بمراكش، و توفر المراجع بها، خلال نفيه إليها، وهي التي أتاحت له فرصة التأليف و قد جاء في هذين المؤلفين معلومات سياسية، و ثقافية و اقتصادية و اجتماعية، و ترجم لأعلام كثيرين من الأندلس و المغرب الأقصى، و المغرب الأوسط و المغرب الأدنى.

ومن المؤرخين الذين اهتموا بالتاريخ الإفريقي، المؤرخ بابا كور بن الحاج محمد بن الحاج الأمين الذي ألف كتابا عنوانه بـ: " درر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان، الذي استفاد منه المؤرخ محمود كعت (15) في وضعه لكتاب تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش و أكابر الناس، و ذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور و تفريق أنساب العبيد من الأحرار " وقد ألف هذا الكتاب في القرن 16 م و قد سجل فيه صاحبه أهم الأحداث التي شاهدها و عاصرها بدأ حديثه عن الاسقيا محمد الأول الكبير، و أثنى عليه، و وصفه بالعدل و الصلاح، والإنصاف ثم أرخ لمدينة تمبوكتو و ما أصابها من دمار وغزو من قبل المغاربة عام 1591 م وقال " ولما أجالهم القوم و ارتحلوا صارت تمبوكتو جسما بلا روح و انعكس أمرها وتغير حالها، و تبدلت عوائدها، و رجع أسفلها أعلاها و أسفلها، و ساد أرضها على عظمائها ".

ومن المؤرخين الذي أرخوا للسودان الغربي المؤرخ عبد الرحمن السعدي الذي ألف كتابا عرف بتاريخ السودان و ذكر في مقدمته أسباب تأليفه و قال : "ولما رأيت انقراض ذلك العلم و دروسه، و ذهاب ديناره و فلوسه، و أنه كبير الفوائد، كثير العوائد بما فيه معرفة المرء بأخبار وطنه و أسلافه، و تواريتهم و وفياتهم فاستعنت بالله سبحانه و تعالى في كتب ما رويت من ذكر ملوك السودان أهل سنغاي، و قصصهم و أخبارهم و سيرهم، و غزواتهم، و ذكر تمبوكتو، و نشأتها و من ملكها من الملوك و ذكر بعض العلماء و الصالحين الذين توطنوا فيها و غير ذلك إلى آخر الأحمدية الهامشية العباسية سلطان مدينة الحمراء مراکش ". و قد أرّخ السعدي للمالك الإسلامية في السودان و نشأة المدن الإسلامية و نبذ عن أخبارها، و عن الدعاة و القضاة " و أئمة المساجد، و الخطباء، و أرّخ للسلطين الكبار من أسرة الاسقيا محمد الكبير و خلفائه من بعده.

ولقد ترجم السعدي لحوالي مائتي عالم سوداني في كتابه على رأسهم أحمد بابا التومبوكتي.⁽¹⁶⁾

ومن كتب التاريخ أيضا، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان لمجهول، و جاء في الكتاب أخبار باشوات إفريقيا و مآثرهم، و حروبهم و صراعاتهم مع القادة المغربية⁽¹⁷⁾.

الهوامش

(i) إن العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام التي تسكن جنوب الصحراء الكبرى قسموا بلادهم ببلاد السودان التي يحدها من الشمال الصحراء الإفريقية الكبرى و جنوبا درجة 10° شمالي خط الاستواء و المحيط الأطلسي من الغرب وينقسم السودان إلى ثلاثة أقسام : السودان الشرقي و الأوسط و الغربي وهذا الأخير يطلق عليه اسم إفريقيا الغربية التي تقع إلى الجنوب من إفريقيا العربية يحدها شرقا بحرية تشاد وغربا المحيط الأطلسي و جنوبا خليج غينيا، مبحوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط و السودان الغربي في العهد الزياني، دكتوراه دولة، قسم التاريخ تلمسان 2005، ص 35.

(2) السعدي عيد الرحمن، تاريخ السودان، تحقيق هوداس 1964 ص 33.

(3) التموكتي أحمد بايا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية بيروت 1891، ص 342.

(4) نفسه، ص 341، 342.

(5) هذان الفرعان لجمال الدين أبي عثمان ت 646، عرف ابن الحاجب و هو دفين الإسكندرية، وكانت كتبه تدرس بجي و تومبوكتو.

(6) أحمد بن عبد الله الجزائري الزاواوي ت 884 هـ / 1479 م، صاحب اللامية المشهورة في علم الكلام، عرفت في السودان الغربي باسم المنظومة الجزائرية، أنظر سعيد حراش، العلاقات الفكرية، المرجع السابق، ص 243.

(7) حسن أحمد محمود، الإسلام و الثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي القاهرة ، ص 244.

(8) لصاحبها عبد الرحمان الفازازي، القرطبي تـ 627 هـ / 1229 م، استعمله السودانيون في المدح.

(9) هو عبد الرحمان بن علي بن صالح المكودي توفي 808 هـ / 1405 م له أيضا شرح المكودي على ألفية ابن مالك، والمقصودة المشهورة في مدح الرسول - صلى الله عليه و سلم -

(10) لصاحبها القاسم بن فيرة الشاطبي المتوفى 590 هـ / 1193 م.

(11) أحمد شكري، الإسلام و المجتمع السوداني اميراطورية مالي 1230 — 1430، أبو ظبي 1999 ، ص 221.

(12) الدالي ابراهيم ، العلاقات بين مملكة مالي الإسلامية وأهم مراكز بالشمال الأفريقي، ليبيا 1991، ص 113، حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص 246.

(13) أحمد شكري، المرجع السابق، ص 224.

(14) الدالي، التاريخ، المرجع السابق، ص 194.

(15) ولد الشيخ محمد بن محمود كعت عام 1468 م، حسب رواية الشيخ عبد الرحمان السعدي، بمدينة تمبوكتو ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم على يد والده الشيخ القاضي محمود و عنه أخذ علوم اللغة العربية و الفقه و الحديث والتاريخ و التفسير، و السير العلماء و الفقهاء، و ارتحل إلى مصر فأخذ عن علماء الأزهر ثم زار البقاع و

الحجاز وعند عودته إلى تمبوكتو اشتغل بالتدريس و الإقراء لعلوم الفقه و الحديث و المنطق و تتلمذ عليه كثيرون منهم الشيخ الفقيه أحمد بابا و غيره، أنظر يحيى بوعزيز، تاريخ افريقيا الشمالية هومة الجزائر 1996، ص 197.

(15) يحيى بوعزيز، المرجع السابق، ص 207، 208.

(17) الدالي، التاريخ، المرجع السابق، ص 196، 197.

لمحة عن ألف ليلة و ليلة :

يعتبر كتاب " ألف ليلة و ليلة " من أهم الكتب التراثية العربية، وهو إن لم يكن أهمها بالنسبة إلى العرب فهو أهمها بالنسبة إلى الأجانب يدل ذلك على كثرة ترجماته و طبعاته في اللغات الأجنبية وكثرة اهتمام الباحثين و القراء الأجانب به.

و مهما يكن شأن أهميته بالنسبة إلينا فهو أشهر مجموعة عربية قصصية على الإطلاق و قد اهتم به المثقفون اهتماما قطع النظر، وليس هناك كتاب آخر يوازي قدرته على عبور الزمن 'فيه من العجائبي والخيالي بقدر ما فيه من الواقعي والحقيقي، وفيه من الإباحية و المجنون بقدر ما فيه من الحب العذري و القيم الأخلاقية ، و فيه من قصص المغامرات الروحية وفيه من ضروب السحر والشر بقدر ما فيه من تجليات الخير والنقاء وفيه من المآسي الضخمة والفواجع المبكية بقدر ما فيه من الملامهي الخفيفة والفكاهات اللطيفة.

ومع ذلك استطاع نص الليالي احتواء هذه الصيغ المتباينة في بنية سردية موحدة لا يبدو فيها أي تباين أو تناقض وذلك إن شهرزاد جعلت من عملية القص شبكة مغوية تقتنص فيها مخاوف شهريار وتلك عبرها عقده و أفكاره الثابتة عن النساء وتكسب بها كل ليلة حياة جديدة تظل شروط استمرارها معلقة بجمال قص الليالي.

ألف ليلة و ليلة عالم فني و معرفي كله دلالات و مادة لا تنضب تتسم بمجموعة من السمات تتيح لها نوعا من التوالد السردى المفتوح الذي يوشك أن يكون لانهايا في تشكلاته القصصية.

الرافة ، العفو و الرحمة في حكايا ألف ليلة و ليلة
*حكاية "التاجر مع العفريت" و حكاية " الصياد مع العفريت "
و حكاية "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" نموذجاً .

الملخص:

يعتبر كتاب ألف ليلة و ليلة من أهم الكتب التراثية العربية و هو إن لم يكن أهمها بالنسبة للعرب فهو أهمها بالنسبة للأجانب ، يدل ذلك على كثرة ترجمات و طبعاته في اللغات الأجنبية و ليس هناك كتاب آخر يوازي قدرته على عبور الزمن ، فيه من الخيالي والعجائي بقدر ما فيه من الواقعي والحقيقي

و نص الليالي حافل بالقيم الإنسانية فهو رصد لعلاقة الفرد بالآخر، وتجلى لبؤر النفس البشرية ببعديها الخير و الشرير، و جدير بالذكر أن ألف ليلة و ليلة تنتصر لقيم التسامح و العدل ، و ذلك أن شهرزاد كانت ترمي إلى تغيير الملك قصد التخلص عن دمويته .

المسافة الملتبسة للظاهر و الباطن ، الحضور و الغياب ، المكشوف و المستور يتحرك و عي القارئ إلا وعودها التي لا تنقطع مسحورا بقدرتها اللامتناهية على التشكل .

لقد حوت نصوص الليالي تجارب بشرية متنوعة، عاجلت قيما مختلفة خوّل لها أن تطبع بالطابع الإنساني المتكامل ، يمتزج فيه الخير بالشر ، و الجمال بالقبح ، و الحب بالكراهة ، و الحزن بالفرح ، و الوفاء بالخيانة ، و الظلم بالعدل لتتصر قيم الخير و الحق و الجمال و الحب ⁽¹⁾ .

لقد كان شهریار و شهرزاد يقتنصان الحياة و هما يتبادلان الموت و ينسجا مصيرهما الوجودي البقائي فيما كانت الرّعة الشهرزادية تحيك مصائر البشر و تدأوي العقد الشهریاریة للملك كان يختفي خلف نظراته الأحادية للمرأة ليمارس سطوته لكن سرعان ما انهار الجدار الذي كان يحمي به، إذ جعلته شهرزاد يصفح و يسامح .

و سنحاول من خلال هذا البحث أن نتقصّى قيم التسامح التي كانت شهرزاد تحاول تلقينها للملك عبر حكاياها، و نتبّع كيفية تجلّي التسامح في نصوص الليالي ؟

2- تجليات التسامح في ألف ليلة و ليلة :

يمكن اعتبار ألف ليلة و ليلة ملحمة أسطورية تتجلّى على نطاق سلطوي إستبداد تواجه فيه شهرزاد الملك الذي قرر أن يتزوج كل ليلة من عذراء ليقتلها في الصباح ، و لكن شهرزاد تستطيع أن تتصر عليه بمسلسل حكايتها المشقّة بحيث تعرض شريطا من الصور المتتابعة التي يتجلّى فيها التسامح ، و قد كانت بهذا : " تعرض عليه صورته من جميع جوانبها " ⁽²⁾

هي في مجملها مدار استقصاء و مجال انفتاح لا نهائي على احتمالات
تأويلية لا تعرف الحدود.

و لمن أولى الغرب كتاب الليالي كبير اهتمام و تبجيل و أحاطوه بمالة
من القداسة، و أكبروا فيه روح الخلق و روعة الإبداع و جمال التصوير، و
هاموا بلياليه الساحرة فإن العرب قديما لم يهتموا به و لم يذكروه إلا عرضا،
و لكن الأمر اختلف في العصر الحديث حيث التفتوا إليه فألفوه مادة غزيرة
يمكن أن تمد الروائي و الشاعر و الرسام و الموسيقي بالمادة التي تمكنه من
تجاوز التصوير المباشر و الصيغ النمطية و تنأى به عن عالم التقليد إلى عوالم
غاية في الروعة . و لعنا لا نعدو الصواب لو قلنا أن ألف ليلة و ليلة كتاب
فريد؛ فريد بعوالمه الساحرة فريد بحكاياته، فريد بعناصره، فريد
بشخصه....فريد في كل شيء . و هذا ما تنبثنا به فاتحة ألف ليلة و ليلة
بأننا سنلج عالما متفردا يحتوي حكايات عجيبة و قصص غريبة و حوادث
مثيرة، عوالم معلومة و أخرى مجهولة.

و لكن لا بد من الإشارة بأن عالم ألف ليلة و ليلة بقي إلى يومنا عالما
غامضا لم تتكشف أسراراه بعد ، لأنه نص لا يقدم إليك نفسه بمجانية و
سهولة ، بل هو نص يراوغك و يراودك حتى لتضع مجموعة من الاحتمالات
اللانهاية و يحيلك على مجموعة من المجالات الميثولوجية و التاريخية و النفسية
، و يرغمك على ضرورة البحث عن " النص الغائب " ، و يدعوا قارئه إلى
الإسهام في إنتاجه ، و من ثمة ينبثق سحر آخر لألف ليلة و ليلة من حيث
هي نص لا يتحقق إلا بقارئه ووجود لا يتحقق إلا إذا ألهم خلقا آخر و من
هنا كان التميز في نص الليالي ، إذ أنه نص يلتفت الحاضر فيه إلى الغائب عنه
، و يقدم الظاهر منه الباطن فيه ، و يجذبنا ما تدنيه إلى ما تنأى به، و ما بين

هذه الرسالة الشهرزادية هي ترجيحها التسامح على العقاب لتهديب شهریار لكي تنقذ نفسها من النطع و تجعله يقلع عن عادته الدموية.

و تواصل شهرزاد هدفها التعليمي محاولة شفاء ملكها عن طريق عرضها لمجموعة من قيم التسامح التي من شأنها تغيير علاقات القوى الجائرة، فشهرزاد هي أسيرة الملك مرتين، مرة بحكم السلطة السياسية و أخرى بحكم علاقات القوى الجنسية، فلما أنهت حكايتها "التاجر مع العفريت" بدأت في حكاية أخرى يتجلى فيها التسامح هي حكاية "الصيد مع العفريت"⁽⁵⁾

و تنص الحكاية على أن صياداً أخرج عفريتاً من قمقم في البحر كان حبساً فيه من عهد سليمان عليه السلام ولما خلّصه الصيد أراد قتله ففكر في حيلة أرجعه بها إلى القمقم فتوسّل إليه العفريت أن يخرجّه فعفا عنه و أخرجه ثانية.

إنه تجلّي آخر للتسامح تريد من خلاله شهرزاد أن تعلم ملكها العفو عند المقدرة.

و المتتبع لحكايات الليالي يقف على تجلّي الوجه الآخر لمتخيل شهرزاد، ففي الوقت الذي تلقن فيه شهریار قيم التسامح تحاول عن طريق تشفير الرسالة أن تبين عاقبة من لا يسامح، فمن حكاية "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" تطالعنا صورة الملك الذي لا يصفح و يقتل من أحسن إليه مجرد أن يخافه تسيطر عليه، و كأننا بشهرزاد من خلال هذه الحكاية تواجه شهریار

مجدداً بحقيقته و صورته وعقده القديمة حيال النساء حيث أخذ كل النساء بذنب زوجته التي خانته، فراح يمارس القتل كل يوم على عذراء يتزوجها ثم يقتلها في الصباح لأن علاقته بها توقظ مخاوفه و تفتح أمامه

إن مواضيع حكايات ألف ليلة و ليلة أمثلة على الشطط و التعسف و قتل الأبرياء و تحقير الإنسان إلى مرتبة الحيوان، و لقد كانت شهرزاد تعلمه من خلالها الترفع عن ثورات الغضب و الغيرة و تكتشف له قصور أحكام البشر و تقوده عن طريق العاطفة إلى تعلم قيم التسامح من رافة و عفو و تقيد بالمعايير في تطبيق العقوبات.

تبدأ حكايات الليالي بعمل تعسفي صادر عن حاكم متجبر فرض الموت على نساءه لأسباب غير منطقية، و تحاول شهرزاد أن تحمي نفسها منه عن طريق الحكاية من خلال ما تختاره من مواضيع و بإيراد حكايات معاكسة عن حكام اشتهروا بالعدل و التسامح.

تضمنت حكاية الليلة الأولى حادثة تبدو كأنها اختيرت عن قصد لتكون معادلا لقسوة شهريار من خلال حكاية "التاجر و الجني".⁽³⁾

تشير الحكاية إلى براءة شهرزاد التي لم تسبب الضرر لشهريار لذلك فنيته في قتلها تمثل قسوة أشد من قسوة العفريت الذي أراد قتل التاجر لآثته قتل ابنه خطأ، و بالفعل أدى موضوع هذه الحكاية إلى تبدل نوعي في موقف شهريار بأن أجّل قتل شهرزاد إلى اليوم التالي، و في الليلة الثانية اختارت موضوع تأجيل التنفيذ فشهريار منحها يوما كي يستمع لبقية الحكاية في حين منح العفريت للتاجر سنة كاملة و بذلك أصبح العفريت أكثر رافة و تسامحا منه، و تنتهي الحكاية بالانتصار لقيم التسامح حيث صفح العفريت عن التاجر وعفا عنه.

لقد استطاعت شهرزاد من خلال هذه الحكاية إخفاء رسالتها وتشفيرها في "شفرة سرديّة معقدة يتوقف نجاحها في إبلاغ رسالتها الجوهرية المضمرة على عدم نجاح مستقبل الرسالة في فك الشفرة..."⁽⁴⁾، و كانت

يا شهرزاد فصاحت على الدادات والحواشي فقالت لهم هاتوا أولادي فجاءوا لها بهم مسرعين وهم ثلاثة أولاد ذكور⁽⁷⁾.

لقد بدأت لعبة المكاشفة وأحاطت نفسها بذكورها الثلاثة قبل أن تواجه ذكور مخاوفه القديمة بمطلبها الأنثوي الذي يجعله يعفو عنها وعن بنات جنسها وهذا ما كان لقد عفا عنها ، وتعلم التسامح والعدل ورفع الظلم بعد أن أخضعته لعملية تدريب طويلة ترقى به في معراج التسامح والعفو وتأنى به عن رؤى الرجل الصراعية.

الخاتمة:

إن ألف ليلة وليلة بوصفها نتاجا معرفيا حضاريا يعكس مخزون الذاكرة المعرفية الجمعية قد غلّت من كثير من الأبعاد الاسطورية والأحلام البشرية الجمعية ومن الواقع بعلاقاته ومكوناته الرؤيوية "قصد الانتصار لقيم العدل والتسامح:

- إنها رصد أنثر بلوجي لحضارات البشرية التي تسمو بالتسامح.
- إنها كشف للإنسان في تعامله مع الآخر وفي صراعه اليومي الذي يجب أن يجد منه التسامح.

* ولما كانت تجلي لما يحدث في النفس البشرية وواقع الحياة فقد كان لابد لها أن تدين القساة الدين لا يسامحون وتشيد بالمتسامحين.

* وتبقى ألف ليلة وليلة تشكيلية هامة وفيسفساء عجيبة لعالم سحري إغرائي أخاد، أهما حكايات تولد حكايات وخلق ينبجس عنه خلق آخر ليوقط وعي القارئ وينبئه إلى قيم التسامح من رافة وعفو ورحمة .

احتمالات الخيانة من جديد فاختارت شهرزاد حكايتها "وزير الملك يونان و الحكيم رويان" بإتقان لتعلم شهريار أن استناد الملك على مخاوفه ورفضه الصبح و العفو يؤدي إلى الهلاك مثلما حدث للملك يونان الذي أراد قتل الحكيم الذي أشفاه من مرضه لا لشيء إلا لأنه خاف أن يقوم بقتله و لما همّ الملك بقتل الحكيم توسل إليه أن لا يفعل لكن الملك أصرّ على قتله ففكر الحكيم في حيلة يقضي بها على الملك حيث ترك له كتابا وضع في صفحاته سماً وقال له إذا قطعت رأسي فافتح الكتاب و اقرأ ثلاثة أسطر منه فإن رأسي ستجيبك عن كل ما تسأل عنه ففرح الملك بذلك و وضع إصبعه في فمه ثم فتح الكتاب فانتقل السم إليه و مات (6)

وبهذا استطاعت شهرزاد في ليلاتها الألف ومن خلال حكاياتها التي تتضمن قيم التسامح رفع الموت لا على نفسها فحسب ، بل عن جميع بنات جنسها ، لقد كان لزاما عليها في كل ليلة يدركها فيها الصباح "ان تتوقف عن الكلام المباح " وتواصل في اليوم الموالي وأرجأت مسألة تنفيذ القتل مدة "ألف ليلة وليلة" من خلال قصصها التي تشيد بالعفو والتسامح بدئا بحكاية " التاجر مع العفريت " وانتهاء بحكاية " معروف الاسكافي " لتصل إلى الليلة الواحدة بعد الألف ، إلى القصة الإطار حيث ينتصر النص لقيم التسامح فقد أعلن شهريار عن توبته عن قتل النساء، فبعد انتهاء الليالي الألف توقفت شهرزاد عن الإضمار والتشفير : " قامت على قدميها وقبلت الأرض بين يدي الملك وقالت له يا مالك الزمان وفريد العصر والأوان إني جاريتك ولي ألف ليلة وليلة وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين فهل لي في جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية فقال لها الملك تمني تعطي

أ.د. يوحسوان العري

أ. شهاب سامية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الفلسفة

—جامعة تلمسان—

نسق القرابة الأمومي عند طوارق الهقار

تمهيد:

لقد اقتصر الاهتمام عند كتابة جزء كبير من تاريخ إفريقيا على مصادر خارجية، فأنتهى ذلك إلى رؤية لا تكشف عن المسار المرجح عن هذه القارة ومنها "الصحراء الكبرى" التي صورت على أنها فضاء منيع يحول دون امتزاج الإثنيات، فوجدنا أنفسنا من واجبنا الاهتمام بسكان هذه الصحراء "طوارق الهقار". ولا يمكن أن نجد خيار سوى التنقل إلى مدينة تمراست بأقصى الجنوب. وإن كان تحريف حقيقة تاريخية عن الطوارق كانتساجهم إلى السلف الأمومي المنحدر عن ملكة الطوارق "تينهينان"، وإدعاء بأن القرابة أمومية ما هو إلا فضاء أنثروبولوجي فارغ أنسج حوله الرحالة والمغامرون قصصا وروايات أبعد ما يكون عن واقع لمنطقة ارتكزت على الطابع الأسطوري في ثقافة الآخر. وكانت النتيجة النهائية أن الزواج الأحادي هو القاعدة الغالبة عندهم، وأن الانتساب إلى الأم "القرابة الأمومية" لا أساس له من الصحة. وما سر استقرار القرابة الأمومية إلا تفوق المرأة في العائلة البربرية.

الهوامش

- (1) - ليلي حوماني ، " تجليات العجيب في ألف ليلة و ليلة " .
رسالة ماجستير ، معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان
2004/2003 ، ص1
- (2) - كاترينا مومسن ، " جوته و ألف ليلة و ليلة " ترجمة أحمد
حمو ، سوريا ، 1980 ص126
- (3) - " ألف ليلة و ليلة " الجزء 1 ، دار المشهد الحسيني ، القاهرة
، دط - دس ص7
- (4) - " مجلة فصول " - إستلهام ألف ليلة و ليلة - المجلد 13،
العدد 2 ، الهيئة المصرية للكتاب ، صيف 1994 ، ص23
- (5) " ألف ليلة و ليلة " ج1- ص13
- (6) المصدر نفسه ، ج1 ص22
- (7) المصدر نفسه، ج 4 ص350